

في سبيل الصحافة

بقلم السير فيليب جيبس

مترجمة بقلم محمد عبد الحليم البرعى

مقدمة

لم تكن الحياة الصحفية يوماً من الأيام بالحياة الهنية عملاً وقل أن تكون مورداً للثراء وأنا من الذين ينصحون الشباب بأن لا يتخذوا الصحافة فاتحة لأعمالهم ولا لأولئك الذين يودون حفظاً لكيان حياتهم ومعيشتهم مورداً مضموناً ووقفاً منظماً وحياة راضية مرضية

وإذا كانت المستحيلات أربعة فإن الخامسة أن تسمع أو ترى أن هناك صحفياً بالمعاش يعيش البقية الباقية من أيامه على ثمرات حياته الماضية وحسبه أنه مضطر أن يعمل ويكتب ويدون حتى آخر نسمة من نسمة حياته بل حتى يسقط القلم من بين يديه وهو مكب على مكتبه وعلى عمله بل حتى بضرب جرس الآلة الكاتبة آخر ضربة في وقت تميل رأسه وتقطع أنفاسه ويصبح جثة هامدة ويسقط فوق جملة لم تكمل بعد

وبالرغم من كل ذلك فإن الصحافة لانزال أحسن سلوك في هذه الدنيا للرجل الحاذق النشط الحائز على شيء من الطلاقة والفكاهة والممتاز ببعض الصفات في حسن استعماله للألفاظ وأن يكون فوق كل ذلك فضولياً بقطرته للوقوف على مبلغ حقيقة بهاء حياتنا التي تمثل على مسارح النهضة الاجتماعية وعلى شريطة أن يكون أبعد الناس عن الدنايا وأعفهم نفساً وأشرفهم غاية

ولاستطيع أن أبين لحضرات القراء بعض ما يعترض حياة الصحفي من المخاطر وخرج المواقف أقصر عليهم بعض القصص الآتية على سبيل التفككة

الحادثة الأولى

إن من الهزء والسخرية أن يجد الصحفي نفسه يوماً ما في بعض الأحياء في

حضرة عظماء العالم والقابضين على ناصبة الحكم فيها وعلى أزمة الثروة أو أصحاب الحول والجاه وفي وقت قد أخذ يفكر فيه ذلك المسكين فيما إذا كان أجره عن المقالة القادمة ستفى بأجر مسكنه الأسبوعي ويتبقى بعدئذ بعض قطع فضية ترن في جيبه

الرث البالي

لقد ساءت الظروف وقضت على مهنة الصحافة ان أقضى ذات مرة بعد ظهر يوم من الأيام بحضرة ملك اسبانيا واشراف بلاطه رغم أنني لم أكن محققاً في أن أكون بحضرتهم وكان ذلك يوم زواج أمير من أمراء آل بوربون بسيده تمت بقرابة الملوك فرنسا اسلافها الأقدمين. ولقد كان الاحتفال بمنزل انكليزي قد تم في انقسام المعدودة من رياض انكلترا ومن أملاك ديوك أربانز ولي عرش فرنسا نحكم الوراثة وكما ينطق بذلك الشعار المنقوش على كل لوح زجاجي ومطبوع على كل فنجال وطبق في منزله بمنفاه الذي احتفظ لنفسه فيه بحياة ملوكة ملؤها رغد العيش والعظمة والفخامة والجديرة به لما اتصف به من الدعة والكياسة شأن هنري الرابع جده العظيم

لم يستطع ديوك أورليانز أن يتحمل تطفل الصحفيين فأصدر أوامره المشددة بأن لا يدخل أى صحفي قبل أن يتم صنع ذلك المعبد الخاص بأكليل الزواج ويطلق النغمات لمثل معبدا ملو كيا قديم العهد عشية ليلة الاحتفال

ولضمان ذلك وحذرا من تسلل أى صحفي إلى ذلك المكان قد صفت قوة عظيمة جدا من رجال البوليس والمخبرين على امتداد ثلاث أميال حتى غابة نورتن والحراسة جميع المداخل أيضا

ولقد كنت مكلفا وقتئذ أن أمد صحيفتي بوصف شامل لكل الاستعدادات التي كانت قائمة على قدم وساق وبقائمة بجميع أمراء وأميرات البوربون الذين يفدون من جميع انحاء أوروبا

ولانجاز تلك المأمورية على الوجه الأكمل وجدت أن خير طريق أسلكها هي اكتراء عربية فخمة أقلتني إلى غابة نرتن ومن غريب المصادفات وحس حظي اني التقيت بعدد من العربات التي تقل ملك وملكة اسبانيا وجميع أعضاء العائلة متراسة على طول الخط بجميعه فبهمة وجهها شطر انقسام فاستقبلني رجال البوليس ومخبروهم

كما استقبلت عربات بقية الأعضاء ومردت دون أقل معارضة من بين المداخل العظيمة المطلاة بالريجة الذهبية والتي يعلوها ناج فرنسا وشعارها ولقد استقبلني فوق ذلك القهرمان بمتى الحفاوة والا كرام ظانا أنى أحد أعضاء البوربون وعلى ذلك دخلت وملك وملكة اسبانيا وفريق عظيم من كرام العقيلات وأشرف البلاط إلى المعبد وأخذنا نتمتع النظر بديع صنعه ثم تعديناه إلى مشاهدة نفيس الهدايا المقدمة للعروسين فالزينة المقامة بقاعة الوليمة المحلاة بحمير الأزهار حتى وصلنا إلى اسطبلات الدوق

و كان ملك اسبانيا على جانب عظيم من الغبطة والسرور وكثيرا ما وجه إلى شخصا بعض ملاحظات بكل حفاوة وإخلاص معتقدا أنى أحد رجال الدوق الأشرف وأخير أعدت ادر اجى فى المساء مخترقا نطاقا عظيما من رجال البوليس الذين كانوا يحبوتى على طول الطريق ومن ثم كتبت وصفا مسها بكل ما رأيت مما أدهش جميع أصحابى وقرنائى

فى اليوم التالى شهدت الحفلة ورأيت ذلك الاجتماع العجيب — التقاء الدم الملكى القديم الفرنسى والاسبانى والنساوى معا —

ومن لطيف ما حدث أن انتشى فى حفلة الوليمة أحد النبلاء الاجانب بعد أن احتسى من الكؤوس المترعة ما اثم له فظل يترنح يمينه ويسرة وينشدمن الأغاني العامية ما طرب ملك اسبانيا وجميع الحاضرين وان أسخط عليه حوذى عربته التى أفلته بسلام

الحادثة الثانية

أن هذه الحادثة التى ظهرت فيها بين رجال البلاط البريطانى لتجعلنى كلما ذكرتها أشعر بخجل عظيم لتطفلى ذلك التطفل غير المرغوب فيه والذى لأجد أمامى ما يكفر عنه أو يبرره. وكان ذلك يوم شرع الملك جورج والملكة مارى فى افتتاح معرض المدينة البيضاء فى لندن

أخذنا جلالتهما يتفقدان المعرض مبدئيا فى يوم مكفهر كانت فيه جميع انحاء المعرض كام فلندر — برك ومستنقعات — مما أثار سخط جلالته وأفرغ حمله فأخذ

يظهر لمن أوكل اليهم الأمر بشكل محسوس جام سخطه وغضبه على تلك الحالة وبينما هو مسترسل في كدره غاص قدمه في منقع فياض فتدفقت الأوحال على كل ملاسه الرسمية ومن ثم أدركته الملكة ماري قائلة (ها يا جوج حتى نعود إلى القصر .) في ذلك اليوم احتشد الخلق ذرافات ذرافات أمام فناء المعرض بعد أن منعوا من الدخول حتى ينتهى الملك والملكة وتدخل حاشيتهم أو رجال البلاط وشرافه ويثنيون من زيارتهم أيضاً أما رجال الصحافة فقد حجزوا أمام مدخل المعرض العام بواسطة حبال شدت من طرفها إلى موقف استحال عليهم رؤية أى شئ ما مما جعلنى على جانب عظيم من الكدر وضيق الصدر غير لم أنى لم أعدم وسيلة إلى كدح زناد أفكارى توصلا لاكتشاف خير حل لأخراجى من ذلك المأزق الحرج وبعد قليل أقبل رجال البلاط معاً وما كادوا يخترقون مدخل المعرض حتى وقف رجال البوليس بينهم وبين الجمهور سداً منيعاً حتى لا يتسلل أى مخلوق خلفهم

وجدت الظروف سائحة ومن العجز أن أدعها تمر دون أن استفيد منها فأسرعت بحفة القرودة وسرعة البرق الخاطف وتخطيت الحبل الحائل وفى أقل من لمح البصر كنت ضمن رجال البلاط كتفاً لكفف

وقد حدث لحسن حظى أن هذه الحركة ،حركة التطويق التى قام بها رجال البوليس، قد حالت بين أحد العظماء (وزير فرنسا المفوض) وبين اتصاله ببقية رجال الحاشية . ولما كان ذلك الوزير يجهل الإنكليزية فقد حاول عبثاً أفهام رجال البوليس مركزه وحقيقته ولكنه لم ينل منه غير طعنة من كوعة فى صدره أعقبها صيحة الأمر الناهى « ارجع قافلاً » وعلى ذلك استتب لى الأمر وأصبحت الشاغل الوحيد لفراغ محله قوة واقتداراً من حسن الصدف

ولقد شعرت من طرف خفى ورأيت أن المخبرين قد أخذوا يعدون رجال ذلك الوفد الملكى وقد ظهر عليهم دلائل الاقتناع بأنه لم يتعد العدد المعين الصادر لهم التعليمات الرسمية بشأنه ولما كنت أرتدى بدله رسمية بقلنسوة عالية حريرية فقد كان من السهل أن أظهر بمظهر الوزير الفرنسى المفوض أو على الأقل لم أكن مدعاة إلى الشك مطلقاً

ولا يفوتني أن أذكر أن الشخص الوحيد الذي لاحظ اختراق النطاق من بين رجال ذلك الوفد كان السيرادوارد جراي (الآن فيكونت جراي) ولكنه لم يشأ إقصائي والتخلي عني بل ابتسم ابتسامة معنوية لجراي وتطفلي هذا وبرودي النادر. وفي الواقع أنني لم أكن على شيء من ذلك الجود والبرود كما يدل محياي ولكني كنت في أخرج المواقف التي قل أن تصيب شخصاً في الوجود وذلك أن جميع رجال الوفد قد أخذوا يتحدثون مع بعضهم البعض ماعدا الملكة الكسندرا التي كانت صماء فقد كان كل همها أن تدرس كل المعروضات خلف ذلك الجمع عوضاً عن الدخول مع أي أحد منهم في أي حديث

ولما كان من الصعب أن أجد من أتحدث إليه فقد اكتفيت بالتقهقر قليلاً خلف ذلك الجمع أيضاً بما استلفت نظر الملكة الوالدة التي أخذت تفضي إلى برقتها المعهودة ببعض ملاحظاتها على تلك المعروضات دون أن تسمع إجاباتي التي كان ملؤها التردد الظاهر

ولأول مرة في حياتي رأيت الاستقبال الملكي الصادر من بحر خضم من جماهير العالم رأيت كما يراه الملوك أنفسهم لا كما يراه جمهرة الناس رأيت بحراً زاخراً متلاطم الأمواج من الاتجاه المختلفة العالم المشربة الاعناق المؤانعة من ألوف من الوجوه ذات العين الواحدة (لأن أغلب المحتشدين لا يرى غير نصف وجهه — فعين واحدة) وكلهم يرفرفون بمناديلهم ويهتفون بملء أفواههم في وقت تهتف فيه الموسيقى صارخة، فليحي الملك،

وفي وقت تفتحت مناظير عشرات من آلات التصوير وأدير عشرات من أيدي آلات الصور المتحركة

ولما عدت إلى إدارة الصحيفة وجدت أن رئيس التحرير قد أذهله مناظر عدة صور شمسية وأنا أسير ألهوينا بجانب الملكة الكسندرا — آمناً مطمئناً. أما وزير فرنسا المفوض فقد علمت أنه احتج أشد الاحتجاج على سوء معاملته



الحادثة الثالثة

كان من غرائب المصادفات المدهشة وفتات الظروف الغريبة أنني وزميل لي

بصحيفة الكرونكل اليومية كنا أول من سمع بوفاة الملك ادوارد السابع من بين جميع مخلوقات ذلك العالم إذا استثنينا من كانوا بقصر بكنهام

كانت النشرات الطبية التي تصدر كلها آية في الحزن ولو أنها لم تكن مظهر اللباس وآخر نشرة صدرت ليلة وفاته كانت أحفل النشرات بشراً وسروراً . كنت طول نهار ذلك اليوم واقفاً أمام القصر أكتب تحت وابل من الأمطار تحت حماية مظلي وصفاً مسبباً لتلك المناظر المذهلة التي كانت من أكبر المظاهر الدالة على مبلغ الحزن السائد على جميع طبقات الأمة الصادر من أعماق قلوبهم كلما فكروا في أن شمس ذلك الملك العظيم المحبوب ستغرب عما قليل وأن نجمه سيأفل وأنه سيرحل الرحلة الابدية عن انكلترا بل وعن العالم بأسره ، واني لمعتقد الآن أنه فضلاً عن محبة ألوف من الخلق له لما اتصف به من حميد الصفات وجميل السجايا الفريدة والسياسة الحكيمة والمواهب الفطرية ولقد كان هناك فوق محل تلك الاعتبارات شعور داخلي سائد في فؤاد كل شخص بأن في وفاة ادوارد السابع اضطراباً للسلم العام ونشوب حرب عالمية كبرى لاحالة

واني لأذكر إلى اليوم أن أحد الذين كانوا مجتمعين تلك الليلة صرح لي بتلك الفكرة حيث قال حرقياً ، ان من بعد ادوارد لحرباً عالمية كبرى طاحنة ،

وان من أكبر البينات على مبلغ احترامه ومحبة الشعب لتلك الملك أن جموع المحنشين حول القصر كانوا الاعداد لهم والذين كانوا يرقبون صدور النشرة الطبية الأخيرة كانوا خليطاً من جميع طبقات شعب لوندريه ما بين كوتتسات وبارونات وممثلين وممثلات من كبار رجال الأمة والنييلات والعمال والعاملات من بريطانيين وأجانب وأنجنيدات من رجال السياسة وحملات الأقلام ورجال الأدب وأقطابه الإعلام وفي الساعة الثامنة من مساء تلك الليلة أو حوالى ذلك الوقت دخلنا القصر مع بقية رجال الصحف وقد أكد لنا اللورد نويلز أن المنتظر أن جلالاته سيقضى ليلة هادئة ملؤها الطمأنينة والصحة والعافية وأنه ليس ثمة حاجة إلى اصدار نشرات طبية قبل صباح الغد خملت ذلك الخبر السار إلى مكتب صحيفتي وبعد أن شرعت في الذهاب إلى منزلي افهمني رئيس التحرير — شأن كل الرؤساء — أنه يأسف لاضطراري لان أعود إلى أدراجي لامضى ليلتي بجوار السراى خيفة أن يحدث أى حادث

ولما كنت على جانب عظيم من التعب والاعياء فضلا عن أن معدتي كانت أفرغ
من فؤاد أم موسى وكان الجوع قد أخذ مني كل مأخذ فقد أردت التخلص من القيام
بتلك المهمة وأبنت له اعداري غير أنه لم يسمح فاحتججت فذهب احتجاجي صرخة
في داو وهباء مشورا وآخر ما نالني من وراء ذلك من ضير وبلغ ما أصابني من تردد
أن آمن استصحابي زميل لي يدي أوى ليشاطرني السهر

وعبثا حاول وانتهى بنا الأمر إلى الذهاب مكرهين عليه تنفيذ

لمشيئة الرئيس

ذهبنا وكان أول عمل قننا به أن أسرعنا بتناول العشاء أولالسد فراغ معدنا الخاوية
ثم اخترنا عربة ذات أربع عجلات وذهبنا إلى فناء السراى واستعد كل منا لتناول
السهر في وقت يملا الآخرة جفوته فقط بالعربة

ولقد كان من حسن حظنا ومن عطف رجال البوليس علينا أن سمحت لعربتنا
الحقيمة أن تلك العربة الوحيدة التي تظل داخل فناء القصر الملكي ورغم وجود
مئات من السيارات الفخمة أمام القصر تقل كثير آمن عظماء الرجال الذين آثروا
قضاء الليل على تلك الحالة

خلع أذن نعله واستعد للنوم أما أنا فقد أخذت أجوب الفناء جيئة وذهابا
أدخن آخر سيجارة وأنا أرقب عن كثيب المنظر الخارجى القريب لمئات العربات
والسيارات

لم يمض على طويلا حتى رأيت عربة ملكية قارية جوبى من الفناء الداخلى وهى
تسير الهرينا ولم تكد تمر من أمامي حتى تبينت عقب انعكاس أنوار مصباح الفناء
أنها تقل من كان وقتئذ ولى العهد والأميرة مارى وكان يلوح على وجهيهما الناصع
إليباض الفاضة دماؤه دلائل الحزن البالغ وكانت أعينهما تذرف الدمع

فأسرعت الخطى حول عربتنا وقلت لزميلى همسا انى أعتقد أن الملك قد
فارق الحياة وفى أقل من لمح البصر كنا نهول صوب مدخل رئيس اسطبلات القصر
وولجنا بابا مفتوحا أمامنا وهناك التقينا بأحد رجال حاشية الملك الذى كان موليا
بظهوره جهة الموقد يتحدث مع رجل مسن آخر تبينت فيما بعد أنه الوزير البلجيكي
وسأله بكل أدب واحترام

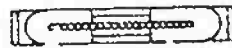
• كيف صحة الملك الآن ياسيدى • وقع بنظره إلى ساعة معلقة فى الجدار وقال وعلى شفثيه ابتسامة صفراء ملؤها الحزن العميق ابتسامة هى أقرب إلى البكاء منها إلى السرور وقال بصوت يفيض تأثرا

• يا سيدى لقد مات الملك ادوارد منذ دقيقتين •

والآن وقد تحقق الخبر من أحد الرجال الرسميين فلم يكن أماننا إلا أن نسرع بنقل ذلك الخبر إلى مكتب صحيفتنا فقصدنا توا إلى نزل قصر بكنهام وهناك خاطبنا رئيس التحرير تلفونيا

أما النشرة الرسمية فلم توزع على الجمهور إلا بعد ساعة من ذلك الوقت الذى تأكدنا فيه ذلك الخبر

وعندذهانى إلى منزلى كان بين يدى عدد من أعداد صحيفتي وقد نشرت فى افتتاحيتها حياة ومات الملك ادوارد السابع ومجمل سيرته وكانت أسبق الصحف إلى نشر الخبر •



اطلب من دار المصور للطبع والنشر

ومن جميع المكاتب المعروفة

مَعْصُومُ الْمَلِكِ نَيْلُ الْحَيَاةِ

وعدة ومقالات أخرى

بقلم

اسماعيل مظهر